مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 04 عدد: 08 السنة 2018 DOI :

المدينة الصحراوية الجزائرية وإشكالات التحضر

The Algerian Desrt City and The Problems of Urbanization

طلحة بشير، جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر

mn.talha@gmail.com

ملخص:

تعد ظاهرة التحضر ظاهرة إشكالا[1] كما يسميها البعض إشارة إلى تعقدها وتعدد أوجه تناولاتها واختلافها باختلاف الحقول العلمية المعالجة لها من زوايا و رؤى متعددة شكلت عبر الزمن ترسبات علمية مهمة في تفسيرها ، من جهة أخري ساهمت هذه المعالجات في تعقيد الظاهرة نظرا للتداخل الموجود بين المقاربات العديدة للحقول المعرفية المختلفة ، علم الاجتماع وعلم الاجتماع الحضري على وجه التحديد قَدم مساهمات مبكرة لتفسير والاقتراب من هذه الظاهرة باختلاف مدارسه ، وهذا باحتلالها مكانة متميزة ضمن المواضيع المعالجة في هذا الحقل . هذه الورقة تسعي لإعادة طرح هذا الموضوع كأحد الأبعاد الأساسية و تربطه بالبيئة الصحراوية كبعد ثاني .

الكلمات المفتاحية : المدينة الصحراوية، المدن الواحتية ، الواحة، القصر، التحضر الصحراوي .

Abstract :

The phenomenon of urbanization is considered as a problematic phenomenon as some researchers name it,because of its complexity and the diversity of the ways of handling it,and its differences to the difference of the scientific fields that treated it through varied visions which formed an important scientific settlings in its explanation over time.On the other hand,this treatment contributed in complicating the phenomenon because of the overlapping

between several approaches of the different knowledge fields,specifically, sociology and sociology of urbanism which presented early contributions to interpret this phenomenon and be near of it ,according to its different schools this paper seeks to re-present this subject as one of the basic dimensions and relates it to the saharian environment as a second dimension.

Keywords ; Saharian City – oasis cities – oasis – El-kasser – Saharian urbanism .

مقدمة :

من الصعب الالمام بموضوع التحضر باعتباره موضوعا متشعب وخاصة في البيئة الصحراوية وبالتالي مقاربته تحتاج الى بحث معمق يتجاوز عدد صفحات هذه الورقة الى دراسات جادة تتطلب مراكز بحثية للاشتغال بها ، ولكن سنحاول في هذه الدراسة التركيز على اهم الخصائص الحضرية والإشكالات المصاحبة لها من خلال إثارتنا للعديد من التساؤلات والخروج بنتائج لعلها تفيد في تفسير الواقع الحضري الراهن التي تعيش فيه المدن الصحراوية الجزائرية ، وهذا وفق الطرح التالي :

1- الإشكال:

تتمثل أهمية الفضاء الصحراوي في ما يشغله من مساحة من إجمالي القطر الوطني حيث يمثل ما نسبته 80% ولا ترجع أهميته لهذا العنصر فقط بل إلى درجة النمو المتسارعة و الملفتة للانتباه خلال العقود الأخيرة ، فقد كان " سكان الصحراء يمثلون حوالي 1,7 مليون ساكن خلال سنة 1948 و 2 مليون خلال سنة 1966 و10 ملايين خلال سنوات التسعينات ، و بالتالي فالنمو الديمغرافي حديث ، لان الزيادة تضاعفت حوالي خمس مرات خلال سنوات التسعينيات ، مقارنة بالمراحل التي سبقتها "[2]، فسيرورة التحضر تسير بوتيرة فائقة و متسارعة مما جعلها " خلال هذه العقود الأخيرة تسجل نسبًا أعلى من تلك المسجلة بشمال الدول المغاربية "[3]، هذا يجعلنا نقر بأننا أمام ظاهرة تحضر حديثة ومتميزة رغم أن أصولها تمتد إلى فترات تاريخية أقدم ، فقد شهدت الصحراء

الجزائرية تحضرا مبكرا ببروز التجمعات الحضرية التي ساهمت الحركة التجارية في ظهورها ونمائها مشكلتا بذلك حواضر في بيئة وفضاء يعيق ذلك .

إن تشكل الانوية الحضرية العتيقة بهذا الفضاء وتطوره أعطانا منظومة عمرانية متميزة شكلا ومضمونا تستجيب في الغالب للبيئة المتواجدة بها وهي ما عرفت بالمدن الواحتية ، هذه المدن التي استطاعت ان تحافظ على خصوصياتها وتواجدها ، ولم تطلها التغيرات الى خلال العقود الأخيرة وبدايتا مع المرحلة الاستعمارية من خلال الإجراءات والتشريعات التي مست مجالها وبنيتها وكانت استجابة مباشرة لإيديولوجية وإستراتيجية المستعمر والتي تخدم مصالحه بدرجة مباشرة وكبيرة ، و زاد الاهتمام بهذا الفضاء نتيجة اكتشاف الثروات الطبيعية به ، فقد كانت كل التدخلات تخدم مسعي استغلالها واستثمارها .

كما طالت هذا الفضاء تغيرات تكاد تكون جذرية وخاصة مع ظهور الدولة الوطنية والتي أدخلت ضمن استراتيجياتها التنموية والتحديثية الفضاء الصحراوي بما يحويه من ثروات مكنته من احتلال أولوية ضمن هذه الخطط .

لقد انعكست هذه الإجراءات والخطط التنموية بشكل مباشر على المدينة الواحيتية ومجالها محدثتا بذلك تغيرا في بنيتها وشكلها ، نتيجة تحضرها المتسارع والعنيف[4] في نفس الوقت والذي جعلها تفتقد لكثير من خصائصها ومميزاتها .

لقد شهدت المدن الصحراوية تحضرا سريعا ومتناميا خلال العقود الأخيرة ، حيث فاقت المدن المتواجدة بالشمال ، فمن " بين المدن 35 الجزائرية الاولي من حيث الحجم هناك سبع مدن صحراوية ، تفوق 100000 ساكن ، فإذا قارنا نسبة التحضر بين مدن الشمال والجنوب خلال التعدادات الأربع الأخيرة ، نلاحظ بالنسبة للأولي أي مدن الشمال انتقالا من 32 إلى 57% خلال العشريات الأربع ، بينما مدن الجنوب عرفت انتقالا في نفس الفترة من 24 إلى 68% ، وهذا يعني أن نسبة التحضر خلال سنة 1966 كانت اقل من النسبة المسجلة في مدن الشمال ، والآن ارتفعت بعشر درجات تقريبا ، فالتحضر شهد وتيرة متسارعة "[5] ، إن هذا الارتفاع في نسب التحضر الذي أثبتته الإحصاءات وأقرته الدراسات يعبر عن مرحلة انتقالية حقيقية تعيشها المدن الصحراوية من طبيعتها الواحتية إلى حالتها التحديثية ، وجعلتنا نتساءل عن طبيعتها وتركيبتها وكذا سيرورتها

الحضرية الراهنة واهم خصائصها وانعكاسات كل ذلك على بنيتها وشكلها ، وهذا جعلنانطرح التساؤلات التالية :

ما هي طبيعة التحضر الذي تشهده المدن الصحراوية الجزائرية في ظل العملية التحديثية التي تشهدها الدولة الوطنية ؟

وما هي خصائص هذا التحضر وميكانيزماته ؟

وكيف اثر على بنية وتركيبة المدن الصحراوية ؟

وما هي انعكاسات هذا التحضر على الإنسان والمجال معا في المدن الصحراوية ؟

أو بصيغة أخري ما هي الإشكالات الحقيقية التي انجرت عن هذا التحضر الذي تشهده المدن الصحراوية ؟

2- المدينة الصحراوية (المفهوم ودلالاته) :

" المدينة والصحراء شيئان متناقضان "[6]، فمفهوم المدينة يشير إلى التمدن والاستقرار والحضور وهو نقيض المغيب بينما يشير مفهوم الصحراء إلى التصحر والقفر والخلاء .

فالمدينة نسبة للصحراء وبالتالي هي أكثر تحديدا من غيرها من التعريفات التي تنسب بالمدن الى العروبة كأن نقول المدن العربية أو الإسلامية ، والتي أخذت نقاشا طويلا بين مؤيد ومعارض ، وبالتالي فهي أكثر وضوحا إذ نسبتها ترجع للوسط الطبيعي و المتمثل في العوامل الجغرافية في المرتبة الأولي ممثلتا في المناخ ، وهي المدن الواقعة في الصحراء ، وقد اعتبر بليز (pliez) أن تسمية المدينة الصحروية أو المدينة في الصحراء هي نفسها (La ville saharienne, ou la ville au Sahara) [7]، بينما إذا ترجمنا هذين المصطلحين إلى اللغة العربية فان المعني يتغير وتصبح المدن في الصحراء هي الإشارة إلى المدن الواقعة بالصحراء فهي مدن كغيرها من المدن إلى أن موقعها بالصحراء ، بينما يشير مدلول مصطلح المدن الصحراوية إلى خصوصية لهذه المدن تميزها عن غيرها من المدن الأخرى بحيث ارتبطت بالصحراء مما يجعلنا نتساءل مرة أخرى عن هذه المميزات و نسعى من خلال بحثنا إلى الكشف عنها .

ولكن الإشكال يكمن في مفهوم الصحراء وعلى من يصدق هذا المصطلح ؟ ، لذلك فقد كانت الدراسات تركز على توضيح خصائص ومميزات المناطق الصحراوية وحدودها دون غيرها .

2-1- التصنيف :

تختلف معايير تصنيف المدن حسب التخصصات العلمية ويعد معيار الحجم أكثرها تداولا ، رغم تأكيد علماء الاجتماع على أهميته في تفسير كثير من الظواهر وتوظيفاته المختلفة بما فيها الحضرية وعلى رأسهم مدرسة شيكاغو إلا أن هناك معايير تقف على نفس المستوي من الأهمية مقارنة به بل تفوقه أهمية في بعض الأحيان ، وعليه فان تبني معيار واحد في تصنيف المدن الصحراوية لا يفي بالغرض على الأقل بالنسبة لهذه الدراسة بل ستتطلب عرض جميع محاولات التصنيف السابقة ومقارنتها والخروج بتصنيف يساعد على فهم خصوصية هذه المدن .

من بين أهم التصنيفات التي تبنت معيار الحجم في دراسة المدن الصحراوية هو تصنيف مار كوت (marc cote) ، حيث صنف المدن إلى ثلاث طبقات[8] انطلاقا من هذا المعيار.

مدن كبيرة الحجم وهي المدن التي يتجاوز عدد سكانها 100 000 ألف نسمة تمثل مقر للولاية ، وعاصمة جهوية مصغرة تتوفر على التجهيزات الخدماتية الأساسية للمواطن ، وسبع مدن تستجيب لذلك وهي : بشار ، الاغواط ، ورقلة ، بسكرة ، تقرت ، الوادي .

المدن المتوسطة : من 20000 الى 35000 الف ساكن وتمثل كل من قورارة المنيعة ، تامنراست ، ادرار.

الفئة الثالثة هي عبارة عن تجمعات صغيرة تشكل مدينة صغيرة تتكون من 3000 الى 15000 الف ساكن ، وهي عديدة ، كما يمكن ملاحظة حتى هذه اللحظة عملية انتقالها من الطابع الريفي إلى الحضري (في طور التحول) .

في موقع أخر يعتبر مار كوت المدن الصحراوية تشكلت من خلال طريق القوافل وأخذت شكل المدن الواحاتية نظرا لان الواحة والماء عاملان أساسيان في تكوينها وهنا تدخل ظروف النشأة كمعيار أساسي في تقسيم تلك المدن ، فمدينة الاغواط وبشار

تستجيب لهذا المعيار فهي مدن واحتية بينما هناك مدن أخرى نشأة دون واحة ودون قصر لان نشأتها حديثة وتمثل كل من تمنراست وحاسي مسعود بينما تنفرد مدينة غرداية بطابعها المعماري ذو الثقافة الحضرية [9].

وانطلاقا من هذا يمكن اعتبار عامل الزمن محدد أساسي فهناك مدن صحراوية نشأت خلال مرحلة متقدمة و عرفت تحضرا مبكرا مقارنة بمدن أخرى ، مما اكسبها تقاليد حضرية ، وتمثل كل من مدينة ورقلة بسكرة تقرت الاغواط غرداية ، مقارنة بالمدن التي نشأت حديثا تمنراست ادرار بشار اليزي .

يقترح جون بيسون تسمية مغايرة للمدن الصحراوية يطلق عليها اسم مدن التعدين والمدن الفطرية ، فغنى هذه المناطق بالثروات الباطنية مكنها من استغلالها المبكر ، كالفحم الذي تم استغلاله منذ سنة 1917 بمدينة القنادسة وتم التخلي عنه في نفس سنة اكتشاف الحقل البترولي بحاسي مسعود أي سنة 1956 ، وهذه المدن (التعدين) كلها حديثة ازويرات بشمال موريتانيا ، حاسي الرمل حاسي مسعود .

كما " عرفت مادة الملح خلال القرون السابقة أهمية لدي سكان تلك المناطق امادرو شمال تمنراست مبيلما مدينة واحتية شمال النيجر وتمودني شمال مالي والأكثر شهرة بوركوبالتشاد ، فتجارة الملح هي التي مكنت او ساعدت على رسم المحاور والطرق الأولى للقوافل"[10]، بينما يطلق مصطلح مدن المحروقات على كل من مدينة حاسي الرمل وحاسي مسعود ، مدن البترول (les villes du pétrole) ، تسير على نفس وتيرة مدن التعدين الكلاسيكية وهي وجود مركز (قاعدة حياة) يعتبر هو الأصل[11].

نجد هذا التقسيم لدى " هوليتز حيث قسم المدن في البلاد النامية إلى مدن منتجة ومدن طفيلية واعتبر أن المدن تكون منتجة إذا ما كان تأثيرها يعود بالفائدة على النمو الاقتصادي للبلد بينما المدن الطفيلية لها تأثير عكس ذلك "[12].

يظهر من خلال هذا التقسيم أن معيار الوظيفة هو المتبنى وان كان ما قُدم من قراءة للمجال الصحراوي اعتمادا على النشاطات الصناعية المبكرة والتي ارتبطت أساسا بتواجد الثروات ودورها في بروز مراكز وتجمعات أعطت لها صفة المدينة فيما بعد نتيجة الهجرة وتمركز اليد العاملة ، إلا أن أكثر ما يؤخذ على تصنيف بيسون هو صعوبة تعميم هذا النموذج خاصة بالنسبة للمدن الواقعة شمال الصحراء أو التي تفتقد للثروات الطبيعية .

وعليه فانه يمكن التمييز بين مستويين من المدن الواقعة بالصحراء بالنسبة لحالة الجزائر ، مدن شمال الصحراء ومدن جنوب الصحراء .

3- التحضر الصحراوي و مراحله :

يمكن التمييز بين ثلاث مراحل كبري تعد منعرجات للتحولات الجذرية التي حدثت داخل المجال الصحراوي ، وان كانت كل مرحلة تحوي العديد من التغيرات المهمة التي يمكن تقسيمها فيما بعد ، وعليه فإننا نعرضها كالتالي :

3-1 التحضر العتيق :

يشير التحضر العتيق إلى المدن والحواضر المبكرة التي ظهرت في الصحراء واستطاعت أن تتطور من مراكز عبور ونقاط التقاء إلى مدن وحواضر مستبحرة في العمران خلال قرون خلت ولكنها ما فتأت أن اندثرت بفعل جملة من العوامل والأسباب ، كان ابن خلدون قد طرح بعضها خلال القرن الرابع عشر ، مرجعًا أسبابها الرئيسية إلى طبيعة نشأة هذه المدن وتركيبتها السكانية ذات الطابع البدوي إضافة إلى غياب سلطة سياسية قارة تدوم المدن بدوامها ، وقد ظهرت هذه المراكز والمدن بدايتا من القرن الثامن الميلادي لتستمر حتى القرن الحادي عشر ، كما أشار إلى ذلك الرحالة العرب الذين كانوا على اتصال مباشر بهذه الحواضر ، وقدموا لنا وصفا دقيقا لمكوناتها العمرانية والاجتماعية و كذا علاقتها بشبكة القصور والمدن الاخري .

وان كانت جل هذه المدن تقع فيما سمي بالصحراء الكبرى أي خارج مجال دراستنا الذي اقتصر على الصحراء الجزائرية ، إلى انه يمكن أن تزودنا بطبيعة هذه الأنماط من التمدن التي سادت خلال هذه القرون وعوامل تشكلها في هذه البيئة التي تناقض أي تحضر أو تطور عمراني .

لقد زودنا الرحالة العرب بدايتا من القرن التاسع الميلادي بوصف لبعض المدن والحواضر التي كانت متواجدة بالصحراء فنجد اليعقوبي(891م) في كتابه (البلدان) يتكلم على أهم المدن الواقعة بالصحراء انطلاقا من الجهة الشرقية وصولا إلى الجهة الغربية .

فيذكر (ودّان وزويلة) وفزان ويصفها بأنها بلد واسع ومدينة عظيمة ، بينما يصف مدائن قسطيلية أنها أربع مدائن في ارض واسعة ، فالمدينة العظمي يقال لها توزر والثانية يقال لها الحامّة والثالثة تقيوس والرابعة نفطة ، ومن قسيطيلة الى مدائن نفزاوة

ثلاث مراحل ونفزاوة عدة مدن فالمدينة العظمي التي ينزلها العمال يقال لها بشّرة ، حتي يصل للجهة الغربية أين يصف مدينة سجلماسة ودرعة .

وخلال القرن العاشر نجد ابن حوقل (977م) في كتابه (صورة الأرض) ، يذكر مجموعة من المدن أهمها سجلماسةواودغست في الغرب ، ويصف هذه الأخيرة بأنها " مدينة لطيفة أشبه بلاد الله بمكة ، ومن اودوغست الى غانة بضعة عشر يوما ، ومن غانة إلى كوغو نحو شهر ومن كوغو الى سامة دون الشهر وسامة الى كزم الى كوكو ومن كوكو الى مرندة شهر ومن مرندة الى زويلة شهران ومن زويلة الى اجدابية شهر ومن زويلة الى فزان "[13]، وفي بداية القرن الحادي عشر يذكر البكري (1066م) أهم النقاط من تلمسان الى سجلماسة ومن واد درعة الى الصحراء إلى بلاد السودان

ويجب الإشارة انه في حالة ذكر أهم المدن والمراكز بالنسبة للجغرافين والرحالة العرب فهم يفرقون بين المجالات الحضرية و المجالات البدوية اعتمادا على العديد من المؤشرات فالبعد الحضري حاضر في مؤلفاتهم وتصانيفهم فالبكري على سبيل المثال يتكلم عن بعض النقاط المتواجدة ببلاد السودان ويصفهم بأنهم " لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا خبزا وإنما أموالهم الأنعام وعيشتهم من اللحم واللبن "[14].

كما يصف الإدريسي (1166م) مدينة سجلماسة " بأنها مدينة كبيرة كثيرة العمران وهي مقصد للوارد والصادر ، كثيرة الخضر والجنّات رائعة البقاع والجهات و الاحصن عليها و إنما هي قصور وديار وعمارات على نهر كثير المياه " [15]بينما يصف مدينة ورقلة بأنها " مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجلون في بلاد السودان إلى بلاد غانة "[16].

كما يمكننا أن نقرأ الأوصاف التي لم تخرج عن إطار ما قدمه الأوائل عن مدن الصحراء في كتاب الجغرافية " لابن سعيد المغربي " سنة 1214 م وعن ما أضافه كذلك الرحالة ابن بطوطة خلال القرن الرابع عشر ، كما نجد وصفا بالغ الدقة لدى " الحسن الوزان " في صدد حديثه عن مدينة سجلماسة حيث يصفها ، " بأنها مدينة متحضرة جدا دُورها جميلة وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان ، وكان فيها مساجد جميلة ومدارس ذات سقايات عديدة "[17].

وللإشارة إلى مدي الوعي الذي يحمله هؤلاء الرحالة للتفريق بين ما هو حضري من غيره ، يمكن الرجوع إلى المقارنة التي ذكرها الوزان في حديثه عن مدينة نفطة بعدما ذكر مدينة سجلماسة ، حيث يؤكد بأنها " ورغم كثرة سكانها فليس لها اطلاقا طابع مدينة

متحضرة " [18]، فالبعد السكاني ليس مؤشرا وحده للدلالة على تحضر البلد في نظر الكاتب .

جل هذه الأوصاف التي يقدمها الرحالة العرب عن ما شاهدوه من مدن وحواضر ، كانت ترتبط بتتبعهم لطرق القوافل والتي ظهرت بفعل التبادل التجاري الذي كان قائما خلال هذه القرون بين الشمال وجنوب الصحراء والذي انتعشت بفعله حركة التمدن الصحراوي ، فقد ظهرت هذه المدن في البداية " كقصور وتجمعات سكنية صغيرة ، وبحكم موقعها على المسالك الرابطة بين الشمال والصحراء ، خرجت من وضعية التقوقع الذي أملته طبيعة نشأتها كقصور صحراوية منزوية ، لتضطلع بوظيفة تجارية " [19]، وهذا ما حدث بالنسبة للمدن التي أسست خاصة على المحور الغربي الرابط بين السودان والمغرب الاقصي (مدينة اودوغستو كومبي صالح) .

3-1-1 التجارة الصحراوية ودورها في نشأة الحواضر :

ارتبط ظهور المدن والمراكز العمرانية في الصحراء الكبرى بالتبادل التجاري بين بلاد المغرب او شمال إفريقيا بصفة عامة وبلاد السودان ، وكانت الصحراء تمثل حلقة الوصل بين الضفتين ، فقد اكتشفت " رسوم صخرية بمنطقة الطاسيلي تشير إلى عربات تجرها الخيول من ليبيا إلى ادرار السوداني " [20]، خلال العصور الحجرية القديمة .

كما قامت حركة تجارية نشطة بين المنطقتين بدايتا من الحضارات الأولي التي استوطنت المنطقة ، فقد شهدت المرحلة " القرطاجية حركة تجارية واسعة و اقيمت أسواق نشيطة ومزدهرة على تخوم الصحراء من اجل تبادل السلع المختلفة التي كانت تحملها القوافل إلى هذه المراكز محملة بالذهب والجلود وريش النعام والعبيد من الجانب الصحراوي والأقمشة والحلي والملح والأحجار الكريمة من الجانب القرطاجي "[21].

وكانت أهم هذه المدن والمراكز مدينة غدامس (Cydamus) " فقد اعتبرها هيرودوت بأنها المركز التجاري الجنوبي للتجارة القرطاجنية ، وكان يربطها مسلك تجاري عبر فزان بالموانئ البونيقية خصوصا طرابلس والتي كانت تنقل انطلاقا منها بضاعة الصحراء بحرا إلى قرطاج "[22]، كما استمرت أهمية هذه المراكز وغيرها خلال الفترة الرومانية وخاصة منطقة فزان وغدامس وجرمة وبلاد الجريد إضافة للقلاع والحصون التي كان يقيمها الرومان بشمال الصحراء من اجل مراقبة تحركات القبائل المحلية الجنوبية .

فيما شهدت الفترة الإسلامية انتعاشا كبيرا لتجارة القوافل ولاسيما مع ظهور الجمل الوسيلة الرئيسية في اختراق الصحراء ، فالإرث العربي مثقل باستغلال المجال الصحراوي فالمنطقة العربية شهدت ومنذ القديم تجارة القوافل التي كانت تربط بين شمال الجزيرة وجنوبها ولاسيما مع تدجينهم المبكر للإبل واستخدامها المبكر في تجارة القوافل بدايتا من مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، كما ساهمت هذه " التجارة في خلق مراكز حضرية والتي تحولت بمرور الوقت إلى أسواق ومراكز تجارية وتوزعت بذلك في أنحاء الجزيرة العربية وأطرافها طرق عديدة للقوافل التجارية ، كان أشهرها طريق البخور "[23].

فقد نشأت العديد من المراكز الحضرية على مسالك القوافل شمال الجزيرة العربية قبل الإسلام كان أهمها البتراء (169 ق م) وتدمر والحيرة ، كما " شهدت منطقة الحجاز أيضا بحكم موقعها على طريق القوافل تطورا حضريا جسدته مدن الواحات أبرزها يثرب التي كانت محطة هامة للقوافل السالكة لطريق البخور ، ومكة التي ازدهرت بفعل التجارة من محطة صغيرة إلى سوق تجارية هامة "[24].

لقد كان من نتائج المبادلات التجارية بين المنطقتين بروز مراكز حضرية بالصحراء ورسم لحدود المسالك الرئيسية التي يتم قطعها بين الشمال والجنوب ، فالعديد من المسالك الرابطة بين هذه المراكز والنقاط انتعشت بفعل المبادلات التجارية والتي لم تكن بحالة مستقرة بل كانت تتغير بتغير الفترات التاريخية ، فالمدن والمراكز شهدت عملية انكماش وبروز بل اضمحلال في بعض الأحيان بفعل الحركة التجارية واستمرارية هذه المسالك في الوجود من منطقة إلى أخري ، حسب ما ذكره المؤرخون والرحالة العرب مابين القرنين السابع 7م والحادي عشر 11م ، فقد شهدت الجهة الغربية بدايتا من القرن الثالث الهجري انتعاشا كبيرا للحركة التجارية بفعل " التحول الذي طرأ على المسلك القديم لتجارة الذهب والرقيق بين بلاد السودان والمشرق فقد ترك الطريق التجاري الرابط بين غانة ومصر عن طريق بلاد النوبة لما كان يمثله من خطر على القوافل وبكثرة العواصف الرملية به ، وأصبح هذا الطريق يمر ببلاد المغرب جاعلا من القيروان وبلاد الجريد و ورجلان وتاهرت وتلمسان وفاس وسجلماسة مراكز تجارية نشطة تتفرع منها شبكة مسالك متعددة وتجمعت بفعل ذلك ثروات كبيرة من الذهب في مدن المغرب "[25].

سادت هذه الوضعية حتى القرن الرابع عشر أي عصر ابن خلدون الذي أشار إلى وجود تحولات كبري فيقول واصفا المغرب خلال هذه المرحلة " لقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت "[26]، وكانت من أسباب هذا التحول أو هذه الأزمة بتعبير ايف لاكوست هو " انعطاف طرق الذهب الذي عزل المغرب فيما بعد و أدى إلى تصدع وانهيار دول الشمال الافريقي "[27]، بسبب " نضوب موجات التجارة الكبري مع بلاد السودان "[28] والتي انجرت عنه كذلك تغير لمسالك القوافل وتراجع أهمية المراكز الحضرية التي ظهرت خلال القرون الوسطي واضمحلالها .

في الحديث عن التحضر خلال هذه المرحلة تثار العديد من الإشكالات التي ترتبط ببروز وتشكل هذه الحواضر بالصحراء و حركيتها و كذا استمرارها ووجودها المرتبط لزوما بالحركة التجارية وطرق القوافل كما مر معنا ، مما يجعلنا نتسائل عن طبيعة هذه الحواضر و أين يمكننا تصنيفها ضمن السيرورة الحضرية العالمية والتي تحتكم في الغالب إلى معايير التحضر الغربية والتي تتحدد من خلال منظومة عمرانية تكاد تختلف في الظاهر عن ما ساد بهذه المناطق ، وهذا ما اثار نقاشا طويلا من خلال " المقاربات التي عنيت بدراسة المدينة العربية الإسلامية ، فقد غيبت كليا الإشارة إلى المدن الصحراوية أو حتى اعتبارها شكلا من أنماط الحياة الحضرية الهامشية ، سوي بعض الدراسات التاريخية التي اعتبرتها من الأنماط الحضرية الإسلامية "[29].

وواقعيا يمكن تأكيد هذه الإشكالات واعتبارها إشكالات حقيقية يصعب في كثير من الأحيان حسمها بالنسبة للمتخصصين والباحثين ، فالنماذج الحضرية التي ظهرت في الصحراء تثير الكثير من الأسئلة حول طبيعة تشكلها أو بنيتها أو حتى مرفولوجيتها ، مما يجعلنا نجسم أننا أمام منظومة عمرانية مغايرة لم تشهدها الكثير من المناطق بل حتى الكثير من الفضاءات الصحراوية مقارنة بصحرائنا ، فقد تشكلت عبر الزمن من وحدات أساسية ممثلتا في (الواحة ، القصر ، الفقارة ...الخ) .

2-3 التحضر في المرحلة الاستعمارية :

تتعلق هذه المرحلة بالإجراءات و التدخلات التي صاحبت الفترة الاستعمارية والتي انجر عنها جملة من التغيرات سواء ما تعلق منها بالتحكم في المجال الصحراوي آو تلك التي مست بنية وتركيبة المجتمع الصحراوي ، والتي يمكن تقسيمها على فترات ، أولها كانت تلك المتعلقة باحتلال الصحراء.

1-2-3 احتلال المجال الصحراوي :

تمثلت هذه المرحلة في محاولة إحكام السيطرة عسكريا على الصحراء والتي امتدت زمنيا من سنة 1844 باحتلال مدينة بسكرة حتي سنة 1934 باحتلال مدينة تيندوف كأخر نقطة في التراب الوطني ، والتي دامت قرابة تسعين سنة بين أول نقطة وأخرها ، ولكن يمكن تقسيم هذه الفترة إلى مرحلتين :

المرحلة الاولي : (من 1840 الى 1870)

تمثلت هذه الفترة في إحكام السيطرة عسكريا على شمال الصحراء بدايتا من احتلال مدينة بسكرة الذي تم سنة 1844 وتبعتها مدينة الاغواط سنة 1852 و ورقلة في سنة 1854 والقليعة في 1873 بينما منطقة مزاب دخلت في معاهدة الحكم المحلي سنة 1853 وأصبحت ملحقة سنة 1882 فقط ، وبمقابل ذلك شهدت هذه المناطق مقاومة كبيرة ضد الاستعمار الفرنسي تمثلت في كل من مقاومة الزعاطشة سنة 1849 واولاد سيدي الشيخ (من 1846 الى 1882) ومقاومة الشريف بوشوشة (1868 حتي 1874) ومقاومة بن ناصر بن شهرة واستمر الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية رغبتا في توسيع مجال نفوذها ولم يتوقف الى سنة 1881 كمرحلة اولي .

المرحلة الثانية : ما بعد سنة 1881

بداية من هذه السنة ستتوقف الحملات العسكرية باتجاه الجنوب قرابة عشريتين من الزمن ، وهذا بعد الحملة التي راح ضحيتها فلاتيرس والتي عرفت لدي الفرنسيين " بمأساة فلاتيرس " والتي انطلقت من مدينة الاغواط باتجاه الجنوب في مهمة استكشافية ، وانجر عن هذه الحادثة تغير في سياسة الاستعمار الفرنسي باتجاه مناطق الجنوب ، حيث تم إتباع سياسة محكمة في التحكم في المجال تمثلت في بناء أبراج وحصون مراقبة تمتد حتى أخر نقطة من الجنوب ، تمثلت فيمايلي :

حصن فلاتيرس : 1898-1904 تيماسين

حصن انفل : 1894 ورقلة

حصن لالموند : 1894 شرق الطريق الرابطة بين ورقلة وعين امناس

حصن ميريبل : 1894 في وسط هضبة تادمايت

حصن ماك ماهون : 1894 الطريق بين المنيعة وتيميمون

حصن موتيلنسكي : 1908 جنوب تمنراست

حصن بولينياك : 1908-1910 اليزي

حصن شارلي : 1921 جانت

حصن لابيرين : 1916-1920 تمنراست

وربطت هذه الحصون بأبراج مراقبة لتضمن الحماية بينها وبين الواحات فالمجال الفاصل بين غرداية والقليعة شيدت مجموعة من الأبراج مابين سنة 1892 حتى سنة 1896 أي بعد احتلال مدينة القليعة تمثلت في :

برج سبسب ، برج حاسي القاعة ، برج حاسي البيوض ، برج حاسي الهدرادة، برج حاسي سعدانة ، برج حاسي الزرارة ، وبين مدينة تقرت و ورقلة ، شيد برج بئر قورافة جنوب شرق تقرت ، وبرج حاسي بالقبور شمال حصن فلاتيرس ، وبرج بير اجديد شمال شرق حاسي مي ، وبرج مي رابح شمال شرق حاسي ميا، وبين قورارة و توات وتيديكلت بنيت مجموعة من الابراج بعد احتلال مدينة عين صالح سنة 1889 ، برج عين راح 1900 و برج طيط سنة 1900 وبرج رافيلو 1902 بأولف وبرج تيممون 1901 وبرج عين خطارة 1911 حوالي 100 كلم جنوب حاسي ينفل ، كما بنيت مجموعة من الأبراج في منطقة الساورة للتحكم في حركة البدو الرحل التى تصل حتى منطقة تيممون وتمثلت في حوالى 14 برج ، فيما منطقة الهقار تم تشيد بها حوالى 11 برج .

إنشاء إقليم الصحراء :

بعد عمليات التحكم في المجال الصحراوي عسكريا ، بدأ التفكير في إحكام السيطرة على المجال الصحراوي إداريا بجملة من الإجراءات والنصوص القانونية وكان أبرزها إنشاء إقليم خاص بالصحراء ، سمي بإقليم الصحراء ، وقد نشأ هذا الإقليم بموجب القانون الصادر في 24 ديسمبر سنة 1902 ، وعدل وتمم بالمرسوم المؤرخ في 30 ديسمبر 1903 المحدد لشروط العمل والميزانية المقترحة ، واعتبر تحت السلطة المباشرة

للحاكم العام للجزائر ، وبعد سنة 1930 التنظيم والهيكلة الإدارية للإقليم الصحراوي شهدت تغيرا طفيفا .

تسيير هذا الإقليم من الناحية التنظيمية يخضع لسلطتين إدارية وعسكرية فكل إقليم من الأقاليم الأربعة التي تم اعتمادها في الجنوب والمتمثلة في كل من (إقليم عين الصفراء ، غرداية ، تقرت ، الواحات) تضم إما بلديات مختلطة أو بلديات أهالي ، و" بالتوازي مع ذلك تم تقسيم الأقاليم الأربعة من الناحية العسكرية إلى دوائر و ملحقات ومراكز "[30].

وبعد سنة 1930 التنظيم الإداري لإقليم الصحراء مسته بعض التعديلات استمرت حتى سنة 1957 ، وكانت من نتائج هذه التغيرات اعتبار منطقة بشار المقر الرئيسي لإقليم عين الصفراء نظرا لأهميته البالغة .

أما على مستوي البلديات فالتغير الوحيد الذي حدث خلال هذه المرحلة هو انتقال بلدية الوادى من بلدية أهالي إلى بلدية مختلطة ، أما باقي البلديات فقد عرفت نوع من الاستقرار.

فيما يمكن تسجيله بالنسبة لهذا التقسيم والمتعلق بالبلديات الأهلية والمختلطة " فان هذه الأخيرة تتركز في كل من الصحراء الشمالية (بشار ، الاغواط ، تقرت) و المناطق التي مثلت حدود الصحراء (البيض ، الجلفة ، عين الصفراء) ، وعلى العكس من ذلك تتواجد البلديات الأهلية في الجنوب الكبير ، ومنه فان هذا التقسيم يعكس بشكل مباشر تواجد السكان الاوروبين "[31]الذين يعتبرون من أولويات السلطات الاستعمارية .

كما أن السياسة المتبعة من طرف الاستعمار الفرنسي اتجاه سكان الجنوب لم تكن نفسها المتبعة في الشمال ، " فالمشرف على مكتب شؤون الأهالي ، هو شخص عسكري متخصص ، يحتل مكانة في النظام الإداري لإقليم الجنوب ، ودوره جد مهم مقارنة مع الشمال ، و رئيس البلدية المختلطة هو حاكم الدائرة أو رئيس الملحقة "[32] ، أما بالنسبة لسكان الصحراء خارج الواحات وخاصة " للقبائل فان لها وجود قانوني ، وتشكل قسما من البلدية ، فأعضاء التجمعات القبلية أو الجماعات (مفرد جماعة) تعين خلال ثلاث سنوات من طرف حاكم الدائرة او رئيس الملحقة وبعد ذلك من طرف الحاكم العام بعد موافقة حاكم الدائرة أو رئيس الملحقة "[33].

وهذا اعتراف صريح بدور وحضور القبيلة كبنية اجتماعية وسياسية بالنسبة للمجتمعات الصحراوية ، وضرورة السيطرة عليها من خلال الإجراءات المبكرة التي استحدثها الاستعمار الفرنسي والمتمثل في هيئة المكاتب العربية التي " أنشأت بمقتضي المرسوم الوزاري المؤرخ في فيفري 1844 ، والتي اعتبرت منذ البداية كإجراء هادف من اجل مراقبة وتأطير رؤساء الأهالي "[34]، والتحكم أيضا في حركة القبائل وهيكلتها من خلال تقسيمها الى قيادات " كل قيادة تضم مجموعة من القبائل والعشائر ، ويرأسها قائد أهلي وكل قبيلة أو عشيرة شيخ ، واستمر العمل بهذا التنظيم إلى غاية 1858 ، السنة التي يبدأ فيها التحول من الإدارة اللامباشرة إلى حكم الأهالي مباشرة "[35].

استغلال الثروات الباطنية :

تزايد الاهتمام أكثر بمنطقة الصحراء مع التوجهات المبكرة للبعثات العلمية الفرنسية الباحثة عن الثروة الباطنية للصحراء الجزائرية ومنها البترول على وجه التحديد الذي تم استغلاله بدايتا من سنة 1947 تحت إشراف مكتب البحث عن البترول (BRP) ، وإنشاء المؤسسة القومية للبحث عن البترول الجزائري سنة 1945 ومكتب البحث عن المعادن سنة 1948 ، بينما أول بئر تم حفره مابين سنوات 1952 و1955 ، فيما تدفق البترول لأول مرة سنة 1956 في منطقة اجلي بعين امناس على الحدود الليبية الجزائرية كما تم اكتشافه في نفس السنة بمنطقة حاسي مسعود .

على العموم تم تحديد ثلاث مناطق لتواجد حقول النفط تمثلت في كل من :

منطقة اجلي بعين امناس،منطقة حاسي مسعود ، منطقة حاسي الرمل

مصادر طاقوية أخرى :

بعد الحرب العالمية الأولي تم اكتشاف حقل الفحم بمنطقة بشار وتحديدا في القنادسة من طرف الجيولوجيين الفرنسيين سنة 1907 و دخل حيز الاستغلال سنة 1917 باحتياطي يصل إلى 25 مليون طن ، فيما تم اكتشاف اكبر منجم للفحم بغار الجبيلات 130 كلم جنوب شرق تيندوف ، يحوي على احتياطي يقدر بأكثر من مليارين طن من المعادن نصفها من الحديد .

هذه المصادر المكتشفة من طرف العديد من الشركات المنقبة عن الثروات والمعادن التي تزخر بها الصحراء الجزائرية حفزت السلطات الفرنسية على إعطاء الأولوية القصوي للصحراء وتمثل ذلك في جانبها التشريعي والإداري ، فقد تم إنشاء المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية (O RC S) والتي كانت تهدف الى تنمية وتطوير هذه المناطق من خلال سياسة اقتصادية موحدة تضم العديد من دول الإفريقية (الجزائر ، موريتانيا ، مالي ، النيجر ، تشاد) .

وفي 10 جانفي 1957 تم الإعلان الرسمي عن إنشاء هذه المنظمة ، وفي 13 جوان من نفس السنة احدث منصب وزير للصحراء ، للإشارة أن إدراج الصحراء ضمن الخطط التنموية وخاصة في المجال الاقتصادي جاء مبكرا خلال سنوات الثلاثينات ولكن ظهر أكثر مع الاكتشافات المتتالية للثروات الباطنية خلال الخمسينات والتي حفزت المستعمر الفرنسي على الاستغلال الأمثل لكل هذه المقدرات بل وتوسيعها لتشمل العديد من المناطق الصحراوية المحاذية للجزائر نظرا لغناها وتنوع ثرواتها .

هذه العمليات مكنت الصحراء من الاندماج ضمن الإستراتيجية التنموية للاستعمار الفرنسي في بعدها الاقتصادي باستغلال الثروات الباطنية وإعادة إحياء الحركة التجارية التي شهدت تباطئ لدور الطرق التجارية القديمة التي عرفت بها الصحراء ، كما تم إدماجها عسكريا وإداريا من خلال الهيكلة الإدارية المتتالية والتي استمرت حتى مرحلة الاستقلال .

3-3 التحضر في المرحلة الوطنية :

مع ظهور الدولة الوطنية بعد الاستقلال " أصبح الجنوب يحتل مكانة إستراتيجية بالنسبة للسلطة المركزية "[36]، إن على المستوي الاقتصادي بما يحويه من ثروات باطنية قابلة لاستغلال او على المستوي السياسي والإداري ، حيث شهدت هذه المرحلة " ثلاث تقسيمات إدارية مهمة بدايتا من سنة 1962 حتى الآن ، كان التقسيم الأول خلال سنة 1963 والثاني سنة 1975 وأخرها سنة 1985 "[37]. وشمل التقسيم الإداري تسع ولايات بالنسبة للجنوب خلال سنة 1963 بمقابل ولايتين لما قبل الاستقلال استمر العمل بهما حتي هذه المرحلة وهما ولايتي الساورة والواحات ، و50 دائرة و165 بلدية ، فيما نص التقسيم الإداري لسنة 1975 على إنشاء ثلاثين ولاية على المستوي الوطني منها خمس ولايات في الجنوب هي (بشار ، ادرار ، تمنراست ، ورقلة ، بسكرة) واثنين جزئيا تابعين للجنوب هما الاغواط والجلفة .

فيما قفز عدد الولايات من ثلاثين سنة 1975 الى 48 ولاية خلال التقسيم الإداري لسنة 1985 ، وعدد البلديات من 704 الى 1541 بلدية ، من بين هذه الولايات هناك عشر ولايات في الجنوب هي (ادرار ، بشار ، بسكرة ، الواد ، غرداية واليزي ، الاغواط ، ورقلة ، تمنراست ، تيندوف) ، بينما التقسيم الإداري الخاص بالدوائر الخاصة بولايات الجنوب فقد شهدت هي كذلك ارتفاعا في عددها من 15 دائرة سنة 1963 إلى 23 دائرة سنة 1975 ووصلت حتي 40 دائرة مع التقسيم الإداري لسنة 1985 ، ومع الإحداث التي شهدتها الجزائر خلال سنوات التسعينات فقد تم رفع عددها الى 80 دائرة

وبالنسبة للبلديات فعدد سكانها يتراوح بين 532 ساكن الى 178000 ساكن ولم يصل الى 5000 ساكن لحد اقصي ، وفيما يخص حدود هذه البلديات فقد كان يأخذ بعين الاعتبار المعطيات الاجتماعية لتقسيم المجال ، حيث نجد دوار في بعض الأحيان مقسم مجاليا بين بلديتن ، وفي بعض الأحيان تقسيم مجال البلدية يخضع لمعطيات فيزيائية كما في حالة ادرار ، فحدود البلدية تتبع نقاط تواجد الفقارة (شرق غرب) ، بينما تنحاز معظم البلديات التي تعتبر مقر الولاية في اتجاه معين ضمن إقليمها ، فالخصائص الفيزيائية للمجال تؤثر بشكل أو بأخر في حدود الولايات والبلديات ، واد ميزاب غرداية ، الساورة بشار ، توات قورارة ، تيدكلت ادرار والزيبان بسكرة وسوف الواد "[38].

ويكتسي التقسيم الإداري خلال هذه المرحلة أهمية بالغة للسلطة الجزائرية حيث " اعتبر وسيلة اندماج وتنمية للجنوب تستجيب لمتطلبات المواطنين بشكل فعال وقوي "[39] كما مكن من خلق حركية للنشاطات والخدمات (ادارت ، مستشفيات مؤسسات تربوية وجامعات ومؤسسات بنكية وخدماتية) ، وهذا بدوره انعكس على جانب التشغيل والسكن ونمط الحياة ، فاستغلال البترول وإنشاء القاعدتين حاسي رمل وحاسي مسعود خلق ديناميكية جديدة ، و طورا المنشآت القاعدية الطرقات والمطارات والتي بدوره سهلت عملية التبادل داخل الصحراء وبينها وبين باقي مناطق الوطن .

شبكة طرق حديثة :

ارتبطت شبكة الطرق التي ظهرت تاريخيا في الصحراء بالقوافل التجارية التي كانت تخترق الفضاء الصحراوي ذهابا وايابا من خلال محاور ثلاثة كبري شرقا وسطا و غربا ، كما ارتبطت بشبكة من المدن والمراكز العمرانية التي ساهمت في نمو هذه المبادلات التجارية خلال عقود زمنية عديدة باتجاه الصحراء الكبري ، ولم تعرف ركودا الا مع

القرن التاسع عشر اين استطاع الاستعمار الفرنسي تحويل اتجاه الحركة التجارية صوب المناطق الساحلية التي تخدم مصالحه بدرجة كبيرة وانشأ بذلك مراكز لتجميع الثروة ونقلها لما وراء البحر ولم يلتفت إلى أهمية الصحراء إلا مع استغلاله للثروات الباطنية " فقبل سنة 1955 لم تعرف الصحراء طرق معبدة ما عدا المقطعين الواصلين بين بسكرة وتقرت وكذلك الاغواط وغرداية "[40].

وبدأت أعمال تهيئة الطرقات تظهر مع احتياجات نقل المحروقات والمعدات المتعلقة به ، وكانت الأعمال الأولي قد " مولت من طرف المنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية (o c r s) وشركات النفط انطلاقا من سنة 1956 حيث تم تخصيص مبلغ 346.47 فرنك فرنسي جديد لانجاز 2000 كلم من الطرق المعبدة و7000 كلم من الطرق الغير معبدة حتي سنة 1961 " [41]، وما بين هذه الأخيرة أي سنة 1961 و سنة 1965 تم انجاز 1000 كلم من الطرقات موزعة على المناطق التالية بني عباس وادرار ، تقرت الواد ، عين مناس ومع الاستقلال تم الاهتمام أكثر بالبني التحتية وتطويرها حيث اعتبرت جزءا من إستراتيجية الدولة وخاصة تطوير مناطق تواجد البترول والثروة الباطنية ، فقد أنجزت خلال هذه المرحلة " شبكة من الطرق الرابطة بين الواحات تيممون والمنيعة وطريق لعبادلة تيندوف حوالي 730 كلم مابين سنة 1967 و 1970 " [42] ، فيما سنوات السبعينيات تم الاهتمام بانجاز وتعبيد الطرق الخاصة بوسط الصحراء تيديكلت والصحراء الكبري ، وبالنسبة لسنوات الثمانينات شهدت هي كذلك عملية انجاز وتوسيع بعض الطرق الجانبية خاصة الصحراء الغربية ، " الطريق الرابط بين لبيض سيدي الشيخ وتاغيتجنوب بشار ، وازدواجية الطريق الوطني رقم 6 ، وبعض الطرق الجانبية في كل من منطقة توات ، رقان اولف ، اليزي ، القرارة بغرداية ...الخ "[43].

ولكن الانجاز الأكبر بالنسبة لشبكة الطرقات والذي يدخل ضمن أولويات الدولة ويحتل دور فعال في بعده الجيوسياسي هو طريق الوحدة الإفريقية الرابط بين جنوب الصحراء والشمال ودول المغرب العربي بصفة عامة بل واوروبا ، وتمتد فكرة انجاز هذا الخط إلى السنوات المبكرة من احتلال الجزائر وخاصة مع ربط المستعمرات الفرنسية للساحل بشمال دول المغرب العربي ، وتطورت المقترحات فيما يخص هذه الخطوط التي كانت من ضمنها ثلاث محاور أساسية على المحور الغربي اقتراح الخط الرابط بين وهران وبشار وجاو ومحور الوسط الرابط بين الجزائر وعين صالح وتمنراست وصولا الى جاو واغاديس ، اما على المحور الشرقي يبدأ من عنابة وصولا الي برج عمر ادريس ويرتبط مع تمنراست واغاديس ، ولكن عملية الانجاز شهدت تعثرا كبيرا بالنسبة لهذه المقترحات

المبكرة التي ظهرت مع الاستعمار الفرنسي ، ولم يعرف المشروع انجازا فعليا الى خلال مرحلة الاستقلال ، " على العموم طريق الوحدة الافريقية توقف عند تمنراست ورقان شرقا والطريق الرابط بين كل من مالي والنيجر فقد كانت عبارة عن طرق غير معبدة "[44]، ولكن فيما يخص تقيم عملية انجاز شبكة الطرقات يمكن القول انها شهدت نموا وتطورا ملحوظا اذ دخلت ضمن اولويات الدولة الوطنية فيما يخص التنمية فالاحصاءات تشير الا انه " خلال الحرب العالمية الثانية لم تكن هناك طرق معبدة بالصحراء الجزائرية ، وخلال العقود الاخيرة انجز مامقداره 8000 كلم من الطرق المعبدة ، انجز منها حوالي 6500 كلم خلال مرحلة الاستقلال "[45].

ونظرا لشساعة الفضاء الصحراوي فقد تدعمت شبكة الطرق البرية بشبكة من الخطوط الجوية من خلال عملية الانجاز المبكرة للمطارات والتي انطلقت سنة 1930 ، ومع استقلال الجزائر سنة 1962 عرفت الصحراء عملية انجاز حوالي 15 مطار والعشرات من المهابط ، ومن هذه المرحلة حتي سنة 1980 لم تعرف انجاز سوى مهبط عين صالح ، وبعد الثمانيات الحقت كل من ادرار سنة 1982 واليزي سنة 1994 وبرج باجي مختار سنة 1982 وعين قزام سنة 1982 وجانت 1984 وغار جبيلات سنة 1982 .

" حاليا يتواجد بالصحراء الجزائرية حوالي ثلاثون مطار منها سبعة مطارات دولية واربعة وطنية والباقي تلعب دور مهابط محلية وجهوية ، كما يحتل مطار حاسي مسعود المرتبة الرابعة وطنيا بعد مطار عنابة ، ويعتبر من اهم المطارات حيث سجل 590000 مسافر خلال سنة 2002 "[46].

وهذا بدوره يرتبط بمدي تطور نشاطات المحروقات بهذه المنطقة وما تتركه من حركية في المجال ، كما ان " جل المطارات الموجودة بالصحراء لم تتجاوز 200000 مسافر خلال العام "[47] ولكن على العموم هناك تطور ملحوظ بالنسبة للبنية التحتية للمناطق الصحراوية بما فيها تطور شبكات النقل البرية والجوية التي ساهمت بدرجة كبيرة في فك العزلة عن هذه المناطق وسهلت حركية السكان داخليا و خارجيا أي بينها وبين باقي مناطق الوطن ، وهذا بدوره ساهم في تنامي معدلات ونسب التحضر بالمدن الصحراوية خلال العقود الأخيرة .

خاتمة :

نستخلص مما سبق أن منطقة الصحراء عرفت تحضرا مبكرا يمتد إلى قرون زمنية عديدة من خلال ما ظهر في هذا الفضاء من مراكز عمرانية تستجيب لمعايير التحضر ، وساهم في ذلك جملة من العوامل كان أهمها طرق القوافل التي خلقت حركية دائمة بهذا الفضاء ، بل إن هذه المراكز كانت نتيجة هذه الحركية ، ولم يقتصر دور هذه الحركية على تشكل هذه الانوية الاولي فقط بل امتد إلى خلق أنظمة عمرانية متناسقة العناصر والمكونات عبرت عن عبقرية الإنسان وانسجامه مع البيئة التي يعيش فيها ، و أصبحت فيما بعد خاصية أساسية تعكس طابع المناطق الصحراوية ، وهذا ماحدث في الصحراء الجزائرية منذ القرون الاولي لتشكل المدن والحواضر بها ، والتي انتعشت بفعل تنامي حركة التجارة والمبادلات بين الشمال والجنوب استمرت حتي دخول الاستعمار الفرنسي الذي سعي الى تغيير طابع هذه الأنظمة وفرنستها بإدخال تعديلات مست الإنسان والمجال معا .

بل أدي به إلى خلق منظومة عمرانية مغايرة تعكس ثقافة الوافد المسيطر ، ولكن رغم ذلك لا يمكن إغفال ما لهذه المرحلة من أهمية في المساهمة في دفع التجمعات السكانية نحو التحضر وان كان هذا النوع من التحضر يستجيب بصفة مباشرة لإيديولوجية المستعمر التي تخدم مصالحه بالأساس .

لقد شهدت الصحراء خلال هذه المرحلة اهتماما كبيرا خاصة مع اكتشاف الثروات الطبيعية التي حفزت المستعمر على ضرورة إعطاء الأولوية ضمن سياساته لإدخال تعديلات جوهرية مست المجال الصحراوي ، كانت نتائجها السيطرة على المراكز العمرانية الموجودة وتوسيعها وكذا خلق مراكز عمرانية جديدة أصبحت فيما بعد مدننا .

لتحتل بعد ذلك هذه المراكز الصحراوية مكانتها ضمن الخطط والاستراتيجيات الوطنية في ظل استرجاع السيادة الوطنية وإقحامها ضمن خطط التنمية التي تخلق نوع من التوازن الاقليمي بعدما كان تركيز المستعمر الفرنسي على الاهتمام بالجزء الشمالي واعطاء الاولوية للحواضر ومدن النقل (العبور) ، ولقد تجلي ذلك بالنسبة للمرحلة الوطنية في جملة المشاريع التي مست البنية القاعدية المتعلقة بالمدن الصحراوية وتطوير هياكلها ، ولكن رغم ذلك لم تكن الامور تسير بوتيرة خطية واضحة ومهيكلة بقدر ما كانت استجابة غير مباشرة لهذه الخطط ، حيث ظهرت ديناميكة كبيرة ومتسارعة في نفس الوقت أفرزت لنا نوع من التحضر المتسارع او الذي أطلق عليه مصطلح التحضر المصغر والذي كان في الغالب يفوق معدلات النمو والتحضر الموجود بباقي مناطق الوطن وخاصة

الشمالية كما دلت على ذلك الإحصاءات والأرقام وخاصة بعد تعداد 1998 حتي السنوات اللاخيرة التي اشارت الى تنامي كبير في نسب ووتيرة التحضر بالنسبة للمدن الواقع في الصحراء الجزائرية وخاصة الصحراء الكبري والصحراء الوسطي .

لقد ساهمت جملة من العوامل في تنامي وتسارع وتيرة هذا التحضر بالنسبة للصحراء الجزائرية كان أهمها حركة الهجرة الداخلية والخارجية على حد السواء ، كما ان تطوير البنية القاعدة وتحديثها قد ساهم بشكل مباشر في تنامي هذه الحركية وتسريعها ، وهذا جعل تقريبا مجمل المدن الصحراوية تعيش تغيرات وتحولات جوهرية مست طبيعتها وجوهرها .

الهوامش:

[1] BELGUIDOUM S., « Urbanisation et urbanité au Sahara », Revue Méditerranée, tome 99,n°3.4,2002 , pp. 53-64.

[2] PLIEZ O., Villes du Sahara, urbanisation et urbanité dans le Fezzan libyen, Paris, CNRS , éditions,2003, 199p.

[3] COTE M., La ville et le désert, le Bas-Sahara algérien, Paris – Aix-en- Provence, Karthala – IREMAM,2005, p 05 .

[4] هذا المصطلح يعد ضمن المصطلحات المفسرة لظاهرة التحضر بالصحراء ، والذي يؤيده الكثير من المشتغلين بهذا الموضوع .

[5] Op, cit ., p 15

[6] COTE M. La ville et le désert, le Bas-Sahara algérien, Paris – Aix-en-Provence, Karthala – EMAM, 2005 , p 05 .

[7] Kouzmine Y , Dynamiques et mutations territoriales du Sahara algérien, vers de nouvelles approches fondées sur l'observation , Thèse de doctorat en géographie, Université de Franche-Comté, 2007, p 17 .

[8] Marc Cote , Dynamique urbaine au sahara , Insaniyat N°13 , janvier-avril 2001 , p 87.

[9] Ibid , pp 97-98 .

[10] Jaen Bisson , Mythes et Réalités d'un desert convoité LE SAHARA , paris L'Harmattan , 2003, p 140 .

[11] Ibid , p 150 .

[12]محمد الجوهري وعلياء شكري ، علم الاجتماع الريفي والحضري ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، 1994، ص 381

[13]سعيد دحماني ، الخريطة الجغرافية للصحراء في القرون الوسطي من خلال بعض كتب الرحالة ، طريق القوافل ، المركز الوطني للبحوث في عصور ماقبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ ، 2001 ، ص 55 .

[14]المرجع نفسه ، ص 57 .

[15]المرجع نفسه ، ص 60 .

[16]المرجع نفسه ، ص 60 .

[17]الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، وصف افريقيا ، ترجمة : محمد حجي ومحمد الاخضر ، الطبعة الثانية ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1983 ، ص 127 .

المرجع نفسه ، ص 139 .

[18]المرجع نفسه ، ص 139 .

[19]احمد مولود ولد ايدّه ، الصحراء الكبرى مدن وقصور ، الجزء الاول ، وزارة الثقافة ، الجزائر ، 2009 ، ص 10 .

[20]يحي بوعزيز ، اهتمامات الفرنسيين بجنوب الجزائر والصحراء ، مجلة الثقافة ، العدد 57 ، مايو يونيو 1980 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص 16.

[21]ابراهيم مياسي ، الاهتمام الفرنسي بالصحراء ، طريق القوافل ، المركز الوطني للبحوث في عصور ماقبل التاريخ وعلم الانسان والتاريخ ، الجزائر ، 2001 ، ص 79 .

[22]احمد مولود ولد ايدّه ، مرجع سبق ذكره ، ص 36 .

[23]المرجع نفسه ، ص 33 .

[24]المرجع نفسه ، ص 35 .

[25]الحبيب الجناحي ، المجتمع العربي الاسلامي ، عالم المعرفة ، الكويت ، 2005 ، ص ص 50-51 .

[26]ايف لاكوست ، العلامة ابن خلدون ، ترجمة : ميشال سليمان ، دار ابن خلدون ، بيروت ، لبنان ، 1982، ص 111

[27]المرجع نفسه ، ص 107 .

[28]المرجع نفسه ، 109 .

[29]مرجع سبق ذكره ، ص 54 .

[30] Kouzmine Y , op., cit , p 69 .

[31] Ibid , p 71 .

[32] Chettih mohammed , la colonisation du sahara-l'ocrs , dar el-douha d'edition et publicite , laghouat , 2014 , p 49 .

[33] Ibid . , p . 50 .

[34]صالح فركوس ، إدارة المكاتب العربية والاحتلال الفرنسي للجزائر ، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013 ، ص 16.

[35]المرجع نفسه ، ص 85 .

[36] Belguidoum Saïd. Urbanisation et urbanité au Sahara. In: Méditerranée, Tome 99, 3-4-2002. Le sahara, p 58 .

[37] Kouzmine Y , op., cit , p 76 .

[38] Ibid , p 80 .

[39] Ibid , p 79 .

[40] Ibid , p 82

[41] Ibid , p 83 .

[42] Ibid , p 83 .

[43] Ibid , p 84 .

[44] Ibid , p 88 .

[45] Ibid , p 88 .

[46] Fontaine Jacques , « Infrastructures et oasis-relais migratoires au Sahara algérien » , Annales de géographie, 2005/4 n° 644, p 444 .

[47] Kouzmine Y , op., cit , p 93 .